


2006

## قراءة في نص استراتيجي حول نشأة الدرس البلاغي

محمد الطوكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>

 Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#)

### Recommended Citation

الطوكي، محمد (2006) "قراءة في نص استراتيجي حول نشأة الدرس البلاغي" *Dirassat*: Vol. 12 : No. 12 , Article 3. Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol12/iss12/3>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

## قراءة في نص استراتيجي حول نشأة الدرس البلاغي

محمد الطوكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي :

أخبرني علي بن أيوب، أخبرنا المرزباني، أخبرني الصولي، حدثنا محمد بن الفضل بن الأسود، حدثنا علي بن محمد النوفلي، قال سمعت أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول. وحدثنا أبو ذكوان، عن التوزي عن أبي عبيدة قال : أرسل إلي الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه، فقدمت عليه - وكنت أخبر عن تجربره - فأذن لي فدخلت - وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية، لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها، فسلمت بالوزارة، فرد وضحك إلي واستدنانني حتى جلست مع فرشه، ثم سألتني، وألطفني وبسطني، وقال : أنشدني، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية. فقال لي : قد عرفت أكثر هذه، وأريد من ملح الشعر، فأنشدته، فطرب وضحك، وزاد نشاطه، ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له : أتعرف هذا؟ قال : لا. قال هذا أبو عبيدة، علامة أهل البصرة، أقدمناه لتستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا. وقال لي : إنني كنت إليك لمشتاقا، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ قلت هات. قال الله تعالى ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف. قلت : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر - الغول يهولهم أو وعدوا به. فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل. واعتقدت من ذلك أن اصنع كتابا في القرآن لمثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه. فلما رجعت إلى البصرة، عملت كتابي الذي سميته المجاز. وسألت عن الرجل فقيل لي : هو من كتاب الوزير وجلسائه، يقال له إبراهيم بن اسماعيل بن داود الكاتب - العبرثائي.

(تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ج. 13 - ص : 254-552).

ورد هذا النص متواترا في معظم المصادر التي خصت أبا عبيدة معمر بن المثنى

بترجمة. فهو في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (ت 463 هـ) نفسه في معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت 626 هـ)؛ وكذا في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان (ت 681 هـ) وغيرها. وترجيعة في هذه المصادر، بالحرف، له عدة دلالات. فهو نص، فعلا، بالمفهوم المعاصر، ولعل أبعاده النصية قد فاتت معظم من درس أبا عبيدة من المتأخرين، فاكتفى بانتزاع جملة أو جملتين منه، زكى بها استشهاده على جزئية من تكوين الرجل، وعدى من معظم النص بمثل قول فؤاد سزكين «ومهما كان الداعي إلى تأليف هذا الكتاب، فقد كان أبو عبيدة...»<sup>(1)</sup>.

فما هو مفتاح هذا النص؟ وما هي مظاهر أدبيته؟

نرى أن تكون الانطلاقة من الشكل أو القالب الذي أفرغ فيه النص.

نلاحظ أنه ينقسم من حيث مظهره الشكلي إلى قسمين كبيرين.

أ - السند المعنعن : هو عبارة عن سلسلة الرواة الذين وصلوا هذا النص من أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 209 هـ أو 213 هـ) إلى مدونه الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، ومنه إلينا نحن قراء الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري. فوسيلة تواصلنا مع أبي عبيدة، على بعد المدة الزمنية وتراخيها بقرون، هو النص. ووظيفة هذه السلسلة من الرواة، هي توثيق النص، أو رفع التبعة عن ناقله، ودفع المتلقي إلى أعمال عقله، وممارسة النقد الخارجي بدوره، فإن اطمأن إليه اطمئنان ناقله فذاك، وإلا فله أن يرد اعتمادا على قواعد التعديل والتجريح. وإذا فالمتلقي مخير بين اتباع المخبر وتصديقه، أو تقري بيناته ووسائله ومحاكمتها.

وُشِّي هذا السند ببعض اصطلاحات أهل الحديث كالنعنة وحدثنا، الحافظ. ومصطلح حدثنا لا يستعمل عند بعض أهل الصناعة الحديثية، إلا فيما قرأ الشيخ على جماعة يكون من بينهم الراوي، وأما ما قرأه الشيخ على الراوي وحده فيقول فيه حدثني<sup>(2)</sup>. ويرى ثعلب أن أخبرنا وحدثنا وأنبأنا شيء واحد<sup>(3)</sup>. وحسب هذا الرأي الأخير، فإن تخيير الراوي بين هذه المجموعة من المترادفات يتضمن بعدا أسلوبيا. وها هنا أحيل على مقولة محور الاختيار عند ياكبسون، الذي يعني الإمكانيات المعجمية التي يتيحها للمتكلم.

(1) أبو عبيدة معمر المثنى : مجاز القرآن، تحقيق الدكتور فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1981، ص 16.

(2) الخطيب البغدادي : كتاب الكفاية في علم الرواية، تقديم الحافظ التيجاني، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1972، ص 434.

(3) الخطيب البغدادي : المصدر السابق، ص. 445.

ب - المتن : بدئ بقال أبو عبيدة. ومنه نستشف من جهة، حجية الرجل؛ فهو علم وركن من أركان الثقافة العربية الإسلامية، وهو من جهة ثانية منتج لنصوص ومتملك لها. كما ختم هذا المتن بكلمة استحسن، وهذه المادة ح.س.ن. تحيل ضمناً لدى المحدثين على درجة الحديث ورتبة مقبوليته.

وإذا فالقالب الشكلي للنص، يمتاح من علم شرعي وهو علم الحديث، أو بعبارة بلاغية ثمة استعارة لهذه القالب؛ أعني إذا كان السند والمتن ومتعلقاتهما من قبيل اصطلاحات الصناعة الحديثية على سبيل الحقيقة، فوجودها في هذا النص، ذي التوجه النقدي والبلاغي، من قبيل الاستعارة. هذا وإن تداخل الشرعي بالنقدي والبلاغي قد بلغ حد تداخل اللحمة بالسدى. فالنص الذي بين أيدينا جاورت فيه آية بينة بيتا شعريا استشهد به في المماثلة بين صورتين بيانيتين، وفي هذا السياق نفسه أورد الخطيب البغدادي حديثاً فريداً، أثناء ترجمته لأبي عبيدة، أدرج هذا الأخير في سنده، وقد وشي ذلك الحديث بيتين شعريين لأبي كبير<sup>(4)</sup>. وأعمال أبي عبيدة الغزيرة جمعت بين اللغة والأخبار والنحو إلى جانب تأليفه في التفسير والحديث. والخطيب البغدادي نفسه جمع بدوره بين المعرفة الشرعية المعمقة، فهو حافظ، وبين فصاحة اللسان، والمشاركة في الأدب ونظم الشعر، وأعماله لا تكاد تخلو من نظرات لغوية وبلاغية<sup>(5)</sup>. هذا عن الإطار الشرعي المستعار للنص والذي لا بد من استحضاره أثناء مباشرة التحليل، فهو من مفاتيحه، وكتب النص كما يقال يشغل بجميع قدراته؛ أو كما يقال بنصفي دماغه.

فإذا عدنا إلى المتن خاصة، فإننا نجده قد سيق في قالب سردي، وهذا يدعونا إلى الاعتماد على بعض الأمثلة السردية العامة. فثمة زمان، ومكان، وشخصيات، وحدث،

(4) أخبرنا أبو حازم عمر بن أحمد بن إبراهيم العبدوي - بنيسابور - أخبرني علي بن أحمد بن عبد العزيز الجرجاني - حدثني داود بن سليمان بن خزيمة البخاري حدثنا محمد بن اسماعيل البخاري، حدثنا أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كنت قاعدة أغزل والنبي ﷺ يخصف نعله، فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولد نورا فبهت، فنظر إلي رسول ﷺ فقال : «مالك يا عائشة بهت؟» قلت جعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نورا، ولو رأك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره. قال : «وما يقول أبو كبير؟» قلت يقول :

ومبرا من كل غر حياضة  
وقساد مرضعة وداء مغيل  
فإذا نظرت إلى اسرة وجهه  
برقت كبارق العارض المتهلل

قالت فقام النبي ﷺ وقبل بين عيني وقال : «جزاك الله يا عائشة عني خيرا، ما سررت مني كسروري منك». الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج 13، ص 252-253.

(5) انظر على سبيل المثال مصنفه كتاب الفقيه والمتفقه، تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصاري، نشر دار إحياء السنة النبوية، 1975، ج 1 ص ص. 27-58-74، 106، 114، و2 ص. 32. وما بعدها.

وحوار، وعقدة، وحل. وإذا عدنا إلى بلاغتنا العربية الكلاسيكية، فإننا لا نجد المتن الذي تعاملت معه مستوعبا للنصوص السردية، أو الحاملة لبذور السرد. ولهذا فنحن بحاجة إلى التماس تلك الأدوات من الأعمال النقدية لدى الآخر، نظرا لأنها تعاملت مع الرواية، والقصة، والأقصوصة والمسرحية. وهذا لا يعني أننا في مسار التحليل سنتككب الدرس البلاغي العربي القديم، بل إننا راجعون إليه كلما وجدنا فيه ما يعمق نظرتنا، ويميط اللثام عن بعض وجوه دلالة النص، كما أننا لن نتأخر عن الاستعانة ببعض النظريات اللغوية المعاصرة، فالمحلل في نهاية المطاف، كما يقال، ما هو إلا مرمق Bricoleur.

1 - المكان أو الفضاء السردية، استهل النص بجملة تحيل على الخروج من مكان مفتوح - أرسل إلى الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه - وانتهى بعبارة تحيل على العودة إلى نفس المكان. «فلما رجعت إلى البصرة». ولنلاحظ من الناحية الفنية الأسلوبية بين هذه المطابقة بين الخروج والرجوع، وإن تراخت المسافة الخطية بينهما داخل النص، وسنعود إلى دلالاته، وبين الجملتين المتقدمتين. وصف لمكان مغلق؛ مجلس الفضل بن الربيع. والمصطلح الذي يفي بتغطية هذا الغرض في البلاغة الغربية هو الطبوغرافية، وهي كلمة مركبة من شقين Topos وتدل على المكان وGrphein وتعني الوصف، ومدلول الكلمة بهذا التركيب يعني وصف الأمكنة، وهو يعني لدى ما سحي الأراضي من المهندسين، إنجاز تصاميم لمختلف أشكال الأراضي مع ما تحمله من خصائص طبيعية أو صناعية. والكلمة عند البلاغيين حسب معجم Fontanier هو الوصف اللغوي الذي يستمد موضوعه من الأمكنة؛ كوصف واد، أو جبل، أو سهل، أو مدينة، أو قرية، أو معبدا، أو كهف، أو حديقة... الخ»(6).

ووصف الأمكنة فنيا لا يكون وصفا موضوعيا، يحيل على مرجعيته كما في عقود المعاملات، بل نجد الفضاء نظاما دالا، يحمل من جملة ما يحمل، معنى جماليا ذا بعد وجودي مرتبط بتجربة مبدعه. إن المسألة الجوهرية في وصف المكان كما يقول باشلار: «هي رؤية ساكنة له، باعتباره مكانا مارس فيه المقيم فيه، أو من كان مقيما فيه، أحلام يقظته وتخيله»(7)

(6) Fontanier : Les figures du discours Flammarion, Paris 1968, P. 422 .

(7) غالب هلسا : جماليات المكان : في مجلة الأفلام القاهرية، ع 10، السنة 1979 .  
<https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol12/iss12/3>

فالبصرة بالنسبة لأبي عبيدة هي المولد، بها عاش وفيها أدرك مجده العلمي، وفيها سيواري رفاته، ولهذا فلا يذكره مترجموه إلا منسوباً إليها، ففيها يحس بالدفء والألفة والأمان، ومن مظاهر اعتزازه بها أنه ألف فيها «كتاب السواد وفتح»، وكتاب «قضاة البصرة»<sup>(8)</sup>، كما تجد في كتبه الإخبارية وغيرها إشارات لطيفة تنبئ عن مظاهر ذلك التعلق، فكلما خرج منها إلا وانتابه شوق وحنين إليها. من ذلك قوله : «لما قدمت على الفضل بن الربيع قال لي : من أشعر الناس؟ قلت الراعي، قال : وكيف فضلته على غيره؟ قلت : لأنه ورد على سعيد بن عبد الرحمن الأموي، فوصله في يومه الذي لقيه فيه وصرفه. فقال يصف حاله معه :

وأنضاء تحن إلى سعيد طروقاً ثم عجلن ابتكاراً  
حمدن مناخه وأصبين منه عطاء لم يكن عدة ضمارة

قال الفضل : ما أحسن ما اقتضيتنا يا أبا عبيدة، ثم غدا إلى هارون الرشيد، فأخرج لي صلة، وأمر لي بشيء من ماله وصرفتني»<sup>(9)</sup>.

ومن مظاهر اعتزازه بالانتماء إلى البصرة، أنه لم ينزح إلى العاصمة بغداد نزوح إقامة وقرار، بصفة نهائية، ولم يتزاحم أو يطرق أبواب المتنفدين في الدولة هناك رغبة في التقرب منهم، والالتحاق بحاشيتهم والاستفادة من ردهم وأعطياتهم؛ فالوزير هو الذي احتاج إليه واستقدمه ليستفيد من عمله. «أرسل إلى الفضل بن الربيع في الخروج إليه». ويقف في وصفه لمكان أو مجلس الفضل عند أبعاده الإقليمية - طويل عريض - ويصف فرشته وشيئاً من أثاته، يصف ذلك بنوع من الاندهاش والاستغراب. إن مجلس الفضل بن الربيع الوزير، لا يمكن أن يتجلى إلا بهذا المظهر الدال على الرفاه، والبسطة المادية والأبهة، والباعث على الهيبة والإعظام، كما أن تأنيته لا يمكن أن ينضد إلا بهذا الأسلوب الذي أثار اندهاش أبي عبيدة. وبما أن الفضل سيد مجلسه؛ فقد عمل على توظيف أشياءه وفق ذوقه الأرستقراطي، كما عمل على استقبال زواره وتوزيع أماكن جلوسهم بطريقة، أو قل بروتوكول، تتناسب فيه جلسة الحضور مع فضاء المجلس وأشياءه. «استدناني حتى جلست معه على فرشته». «دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي» «وفي صدره فرش عالية وهو جالس عليها». وفي رواية ابن خلكان «وفي صدره فرش عالية لا يرتقى عليها إلا بكرسي».

(8) ياقوت الحموي : معجم الأدياء دار الفكر، الطبعة 13 - 1980، ج. 19، ص 162.

(9) ابن خلكان «وفيات الأعيان، تح، إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، د. ت، بح 5، ص. 240.

إن أبهة المكان وجماليته لا ينبغي أن تتسببنا حمولته الإيديولوجية. يقول : Jean Baudrillard «أؤكد أن الأشياء في حد ذاتها حمالة لرموز دالة على تراتبية ثقافية واجتماعية، توحى بذلك أبسط جزئياتها المتمثلة في الشكل والمواد والألوان، وفي كيفية تنزيدها وفق نظام معين»<sup>(10)</sup>.

2 - الشخصيات وأدوار الحوار : في النص ثلاث شخصيات : الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد، السياسي والإداري المعروف بحنكته ودهائه، فعلى يده وقعت نكبة البرامكة. وفي ذلك يقول أبو نواس :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع  
إن دهرا لم يرع عهدا ليحي غير راع ذمام آل الربيع<sup>(11)</sup>

الشخصية الثانية أبو عبيدة معمر بن المثنى المثقف العالم، قال عنه الجاحظ : «لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه»<sup>(12)</sup>. ميوله، بحسب ترجمته، خارجية. قال تلميذه أبو حاتم السجستاني : «كان أبو عبيدة يكرمني على أنني من خوارج سجستان. وقال الثوري : دخلت المسجد على أبي عبيدة وهو ينكت الأرض جالسا وحده، فقال لي : من القائل :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فقلت له : قطري بن الفجاءة - الشاعر الخارجي - فقال : فض الله فاك! هلا قلت : هو لأمير المؤمنين أبي نعامة. ثم قال لي : اجلس واكتم علي ما سمعت مني. قال : فما ذكرته حتى مات<sup>(13)</sup>».

الشخصية الثالثة كاتب الوزير، الجامع بين مستلزمات الكتابة الديوانية وسعة الثقافة، وقد ظهر بزي «خاص بالكتاب - وبهيئة حسنة». فالخلقة المقبولة، والتكوين الجيد، والزي الحسن من الموصفات الضرورية لمن يختار للاستكتاب، إذ الكتاب - تبعاً لرأي Baudrillard - لا يمثلون أنفسهم، وإنما هم يعكسون نبل من يقومون بخدمتهم - السادة - هؤلاء الأشخاص يكلم بعضهم بعضاً أي يتحاورون، فما الحوار Dialogue؛ إنه عبارة عن تبادل أدوار الكلام بين شخصين أو أكثر. فالمتكلم - في الحدث الكلامي الحوار - لا يستأثر بالكلام

(10) Jean Baudrillard : pour une critique de l'economie politique du signe, Gallimard, 1972, p. 19.

(11) ابن خلكان : المصدر السابق، ج 4، ص 38.

(12) الخطيب البغدادي : المصدر السابق، ج 13، ص 252.

(13) ابن خلكان : المصدر نفسه، ج 5، ص 241.

وحده ويستبد به إلى النهاية، ويبقى المخاطب مكتفياً بالإنصات والإصاخة، بل يتبادلان أو يتبادلون الأدوار، بحيث يصير المتكلم مخاطباً، ويؤول هذا الأخير في نوبته متكلماً<sup>(14)</sup>. وأمانة تبادل الأدوار يشي بها في الخطاب الشفوي اختلاف الأصوات وتناوبها، وتبدل النبرات وتنوعها. ويظهر الحوار في النص المكتوب عن طريق الرجوع إلى السطر وابتدائه بخط صغير، وتبرز على مستويات الحوارية في المسرح. فكلام باث ما يسمح بإنتاج كلام آخر لدى من كان يستمع إليه. لقد خضع أسلوب الحوار في هذا النص لشروط المقام، ومنزلة المتحدث ومقام المستمع. - سلمت عليه بالوزارة - ورد وضحك - سألني وبسطني - أنشدني فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطاً - أتعرف هذا؟ فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا - التفت إلي وقال لي: كنت إليك مشتاقاً - فقلت هات.

فهذا الحوار يبرز العلاقة الموجودة بين الأشخاص، والتصور الذي لكل واحد منهم عن الآخر. فما نرى إلى سمع أبي عبيدة من أخبار الفضل جعله يتصوره شخصاً سلطوياً متجبراً، بيد أن واقع اللقاء كذب ظنونه وخيب أفق تصوره وتصورنا معه، لقد كنا باعتبارنا قارئين نتوقع أمر جلالاً، لكننا فوجئنا بالفضل يرد تحية أبي عبيدة بأحسن منها، بالعبارة والإشارة الدالة - فرد وضحك واستدنانني منه حتى جلست معه على فرشه - والضحك والجلسة بالقرب تعينان التودد والاطمئنان والحميمية، وهذا حسب النظرية التواصلية لياكسون فتح موفق للقناة، من شأنه أن يفسح مجال القول لأبي عبيدة، ومن ثم سيجيب على أسئلة الوزير بارتياح ورحابة صدر. وينعكس مركز الوزير ومقامه على الحدث الكلامي في الصيغ الأمرة. وتبرز مكانة أبي عبيدة ومنزلته في الاستجابة الفورية الذكية لطلب الوزير. - أنشدني فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية - فثمة أمر من جهة عليا ومطاوعة من جهة أبي عبيدة، وتفطن أبي عبيدة لما يقتضيه مقام الوزارة من شعر محافظ، كان الساسة على علم بنجاعته، وكانوا يستهلكونه ويقوون به ملكتهم وقدرتهم على إنتاج الكلام، وبخاصة الخطابة، فاللغة في حد ذاتها سلطة، نتبين ذلك من خلال موقف الفضل من عيون ما أنشده أبو عبيدة، حيث قال: أعرف أكثر هذه، فهذه الجملة الفعلية خبرية في ظاهرها، مصروفة إلى الإنشاء باعتبار هذا المقام. فكأنه قال له: أنشدني من غير هذه الأغراض، وجاءت الجملة بعدها مباشرة مبينة لنوع الأشعار التي يطلبها الفضل،

(14) تعرضت كتب الخلاف والجدل إلى هذه الأدوار الكلامية في فصول أدب الخلاف، فعلى سبيل المثال يقول البغدادي: «يجوز للمتكلم إذا عين في نوبة من كلامه شيئاً، ثم أعاد النوبة» ويقول في معرض آخر: يجوز للمتكلم إذا عادت نوبته في النظر... الفقيه والمتفقه. ج2، ص 53. أما النظريات اللغوية المعاصرة، وكتب النقد المعاصر، وخاصة بحوث السرديات، فقد أفاضت في هذا الموضوع وأغنت.



إنها ملح الشعر، فما دام المجلس قد جمع بينهما من غير فضول شخص أو أشخاص آخرين، فحينئذ لا ضير في الانبساط والتلذذ بملح الشعر. والملح كما في الحماسة البصرية» هي ما وصفت به الأشياء على اختلاف أجناسها وأنواعها»<sup>(15)</sup>، وترد الملح في النقد مقترنة بالبرقة. قال الفرزدق للأحوص بعد أن سمعا شعرا مغنى بالمدينة «ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وما أملحها»، وندرك مفهوم الملاحاة في النص من خلال أثر النصوص المليحة في المتلقي؛ فخلال إنشاد أبي عبيدة لتلك الأشعار، كان الوزير يستمتع ويتلذذ بالنصوص التي تشنف مسمعه، ولهذا التلذذ مظهران، وجداني وجسماني مرئي «فطرب وضحك وزاد نشاطا».

إن مصرع الحدث الكلامي الذي دار حوله الحوار بين الوزير وأبي عبيدة ضارب في صميم النقد، فأبو عبيدة اختار من محفوظاته عيون الأشعار، والاختيار في حد ذاته، وإن لم ينص على الأشعار التي أنشده، عملية نقدية ضمنية، «فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية» وعين كل شيء خياره<sup>(16)</sup>. قال ابن قتيبة عن عيون الأخبار، «هي لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض وحلية الأدب، وأثمار طول النظر، والمتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء»<sup>(17)</sup>. وأما المتلقي - الوزير - فقد تعامل مع ما سمعه بطريقة نقدية انطباقية تأثرية، حيث كان ينتشي ويطرب ويزداد نشاطا. وبدخول الكاتب يصمت أبو عبيدة. وهذا الصمت وذاك الدخول مؤذنان بانتهاء الحدث الكلامي الأول مع الفضل، والانتقال إلى حدث كلامي آخر. وهذه النقلة بحاجة إلى إغلاق القناة السابقة ينحى بمقتضاها الوزير، وفتح قناة جديدة بين أبي عبيدة والكاتب. وسيباشر الوزير هذه النقلة بتقديم أبي عبيدة إلى الكاتب يقول: «هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه»، وتأتي صيغة الدعاء إلى الوزير من الكاتب مناسبة لإزاحة الوزير إلى الظل، لينطلق الحوار بين الكاتب وأبي عبيدة، وتزداد وتيرة فتح القناة شدة بقول الكاتب موجها خطابا لأبي عبيدة «كنت إليك مشتاقا»، ويصبح أبو عبيدة أمام تحد ثان؛ بالانتقال من إنشاد الشعر إلى النص الديني، ومن النقد الشفوي والتأثري إلى التحليل، ومع الكاتب سننتقل إلى الحوار الإشكالي الذي ينتج معرفة جديدة، ومن الرواية إلى الداربية.

(15) صدر الدين علي بن الحسن: الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1973، ج 1، ص 3.

(16) ابن منظور: لسان العرب مادة ع.ي.ن.

(17) ابن قتيبة: عيون الأخبار: وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر 1963 ج 1، ص (ط).

سأل الكاتب أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾<sup>(18)</sup>. وعلق على الصورة البيانية بقوله: «وإنما يقع الوعد الإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف» فهذه الصورة البيانية في نظره غريبة وعجيبة. وإذا فما العجب؟ وما الغرابة؟ وما هو متأه في الآية الكريمة؟ وعلى أي منهج استند الكاتب في دعواه؟ وما هو المنهج الذي سيعتمده أبو عبيدة في دفع دعوى خصمه؟

يقول القزويني عن مفهومي العجيب والغريب: «العجب حيرة تعرض للإنسان عن عدم معرفة سبب الشيء، أو عن - عدم - معرفة كيفية تأثير فيه... ويسقط العجب للأنس وكثرة المشاهدة. والغريب كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة، والمشاهدات المألوفة<sup>(19)</sup>» وإذا فالآية بالنسبة للكاتب خارجة عن مألوف العادة في الصور التشبيهية، فمنطق التشبيه يقتضي في نظره، أن يكون المشبه به أعرف من المشبه، يوتى به لبيان المشبه وإيضاحه، فإذا كان المشبه في الآية ممكن الإدراك وهو طلع الشجرة، فإن المشبه به لا يتأتى إدراكه بالحواس، فالشيطان لا يرى، وفي القرآن الكريم ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾<sup>(20)</sup> وتظهر غرابة الصورة أيضا في انبثاق نوع نباتي من دركات نار متأججة مع بطلان مفعول إحراقها، كما أن طلع الشجرة من غير جنس النبات، إنه رؤوس الشياطين المخلوقون من النار ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار﴾<sup>(21)</sup>، ومن هنا طرح الكاتب سؤاله الوجيه «وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف؟».

إن تحليل الكاتب متأسس على أن للتشبيه ثلاثة أبعاد دلالية:

1 - فهو صورة بيانية قائمة على التخيل.

2 - وطريقة من طرق الحد.

3 - وحجة منطقية. فالتشبيه عنده شكل من أشكال الأقيسة.

وإذا فالرجل يقدم دعوى قائمة على معلومات منطقية وفلسفية، بيان ذلك. فكون

التشبيه صورة بيانية تخيلية أجدنا أشرنا في مسألة الغرابة إلى بعض جوانبها.

(18) الصافات، من الآية 26 إلى 56.

(19) زكريا القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح، فاروق سعد، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1973، ص. 31 وما بعدها.

(20) الأعراف، الآية 27.

(21) الأعراف، الآية 12.

أما أبعاد التشبيه المنطقية، فنرى الكاتب اعتبره صيغة من صيغ التعريف أو القول الشارح. وهي أنواع : التعريف بالحد، والتعريف بالرسم، والتعريف بالإشارة، والتعريف بالمرادف، وأخيرا التعريف بالمثل وهو الذي يعيننا. وفيه تستعمل أدوات التشبيه، ويحضر المشبه به مبينا وموضعا يقول ابن الاثير «فالحسن من التشبيه ما يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيدنا بيانا»(22).

التشبيه أيضا عند الكاتب حجة منطقية، فهو شكل من أشكال الأقيسة، والقياس برهان ينتقل فيه الذهن من المعلوم إلى المجهول. ويمكننا أن نوضح ذلك بما يلي :

- المقدمة الصغرى فلانة وسيمة
- المقدمة الكبرى كل وسيمة قمر
- النتيجة فلانة قمر

فالنتيجة المستخلصة من المقدمتين - فلانة قمر - صورة تشبيهية يقول ابن المرزبان في التحصيل «القياسات الشعرية أيضا فإن مقدماتها أيضا كالمسلم بها، ويلزم عنها قياس، فيقال : فلان وسيم، وكل وسيم قمر فيلزم عنه فلان قمر(23)».

وإذا فالكاتب يؤول هذه الصورة انطلاقا من وجهة نظر فلسفية، ومحاورته لأبي عبيدة هي محاوره حجاجية ملفومة بمثل هذه الحجج المنطقية.

أما أبو عبيدة فقد دعا خصمه بوجهة نظر فنية جمالية، وبرهن على ذلك بالاستشهاد بالرواية والنقل أو بقياس استعماله، داعيا مساجله إلى التأمل والموازنة بين النص الديني والنص الشعري. «وإنما كلم الله العرب على قدر كلامهم» واحتج بالمسموع من كلام العرب وهو قول امرئ القيس.

يقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة رزق كآنياب أغوال

جاء في اللسان : «الغول أحد الغيلان، وهي جنس من الشياطين والجن، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تترأى للناس فتتغول تغولا؛ أي تتلون تلونا في صور شتى، وتغلو لهم أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم(24)». ونسج امرؤ القيس هذه الصورة ليعظم بها ويهاب «وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به» فمثل بصورة مماثلة لما في الآية مع الإشارة إلى إحياءاتها وأثرها في نفس المتلقي.

(22) ابن الأثير : كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، مطبعة الزهراء القاهرة 1994، ص 191.

(23) د، مزيد جبر وآخرون : موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1 1996 مادة قياس.

(24) ابن منظور : لسان العرب مادة غول.

إن الحوار الدائر بين أبي عبيدة والكاتب من قبيل الحوارات المعمقة المنتجة والمقدمة للعلم. فقد تأسس حكم كل واحد منهما على خلفية نظرية واضحة، إحداهما فلسفية والثانية فنية. إن احتكاك هاتين الروايتين هو الذي أدى إلى انقذاح شرارة الدرس البلاغي الذي سيعكف أبو عبيدة بعد رجوعه إلى البصرة على تأصيله.

ولم ينس أبو عبيدة فضل محاوره الذي ذكره في مستهل الحوار بكلمة عامة منكرة - دخل رجل - لكن المساءلة والمذاكرة كشفت له على أنه كان بإزاء محاور عالم، وأيقن أنه من جملة الأعلام الذين يحق التنبه إليهم والإشادة بعلمهم، فرجع إليه في نهاية النص وعقب بذكره معرفاً بأل - وسألت عن الرجل - ولم يقتصر على ذلك بل أوغل في المزيد من التعريف، فعرفه بالعلمية؛ بتعيين اسمه، واسم أبيه وجده، ووظيفته ومحتده. فهو ابراهيم بن اسماعيل بن داود الكاتب العبرتاني.

تلك قراءة في نص بلاغي تأسيسي جاء «في عهد وضعت فيه أسس العلوم الإسلامية على مختلف نواحيها من تفسير وحديث وفقه وأخبار، وكان أبو عبيدة يشارك في أنواع هذه الثقافة مشاركة جيدة»<sup>(25)</sup>. وقد حاولنا معالجة ذلك النص اعتماداً على أمتعة متنوعة؛ تداخل فيها الشرعي بالسردى والبلاغي والمنطقي والتواصلية، إذ المحلل كما قدمنا ما هو إلا مرمق Bricoleur. وقد وقفنا عند حاجة السياسي إلى العالم، ولاحظنا أن الحوار الدائر بينهما كان متمسماً، بصفة عامة، بسمة التقليد وغلبة الرواية، بينما تميز حوار المثقفين المجتهدين بالدراية، وجرأة الفكرة، عندما تناولا الصورة البيانية الخارجة عن مألوف العادة، وأن تقاسمها هو الذي أدى إلى تلبية الحاجة الماسة إلى البلاغة.

لقد تتاح هذا النص من مجالسة حامل الإيديولوجية العباسية وخدامها، الفضل بن الربيع، والمعارض الخارجي أبي عبيدة، والموظف الإداري السامي المثقف المتفتح الكاتب، وفي هذا النص قدمت الثقافة ساحتها كإمكانية لتوحيد وتجميع ما فرقته إحن ومقالب السياسة في العصر الوسيط.